مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

النمط التأليفي في الكتابة الإخبارية المغربية خلال العصر الحديث

محمد المنتفع
أستاذ باحث في التاريخ الحديث
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
جهة كلميم وادنون – المملكة المغربية

مُلَخّص

يروم هذا المقال إلى الكشف عن أهمية كتب الإخباريين المغاربة وقيمتها التاريخية خلال العصر الحديث، باعتبارها مواد مصدرية ثمينة في الكتابة التاريخية في مستوياتها المختلفة، فهي تتميز بتحريها لمواضيع متنوعة، وبانتظام أسلوبها في الكتابة، إذ تعرض الحدث ثم تعقبه بذكر التفاصيل، وتتناول التواريخ واحدة بعد أخرى حسب تسلسلها التاريخي، وتقف على مواضيع سياسية وإدارية واقتصادية وديمغرافية وثقافية، ولا تغفل الظواهر التاريخية مثل الجفاف ودورية المجاعات والأوبئة وارتفاع أسعار الحبوب وغلاء المعيشة وآثارها الاجتماعية. وتمثل إخبارية "مناهل الصفا" للفشتالي، و"المنتقى المقصور" لابن القاضي، و"تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية" لمؤرخ مجهول، و"نزهة الحادي" للإفراني، و"نشر المثاني" للقادري نموذجًا معبرًا لهذا النمط من التأليف، ورغم حمولتها السياسية فإن متونها المصدرية تحمل دلالات وأبعاد وغايات تتطلب جهدًا لاستنطاقها. نظرًا لأهمية هذه الدراسة بذلت أقصى الجهد في أن أنهج نهجًا علميًا خالصًا، لا أميل مع الأهواء ولا أتعصب لرأي، ولم يكن يحفزني إلا الموضوع نفسه، ولم يكن بد من آخذ نفسي بتحري المنهج التحليلي والوصفي والمقارن حتى أتمكن من الإجابة عن الإشكالية والتساؤلات التي وضعتها، لذا سأعرض في هذه المساهمة البحثية دور هذه المؤلفات في تقدم الكتابة التاريخية خلال العصر الحديث، وأهميتها في المعالجة التاريخية بمختلف مستوياتها، وكشف نواقصها، وحدود وقيود الإخباري في ظل ارتباطه بالسلطة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٩ سبتمبر ٢٠٢٠
تاريخ قبول النشر: ١٨ أكتوبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المؤرخ الإخباري؛ الكتابة التاريخية؛ السلطة؛ المغرب؛ العصر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.206480

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد المنتفع. "النمط التأليفي في الكتابة الإخبارية المغربية خلال العصر الحديث".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص١٩٢ – ١٩٨.

Corresponding author: Elmountafiamed@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

تُعَدّ كتب الإخباريين المغاربة من طبقة الفشتالي وبن القاضي والإفراني ومؤرخ مجهول والقادري أهمية كبيرة في تطور الكتابة التاريخية خلال العصر الحديث، رغم أن خيوط الأحداث التي نسجتها بعض مؤلفاتهم كانت وفق منظور يساير توجهات السلطة الحاكمة مما لا يترك لهم مجال إبداء رأيهم وتصورهم حول مختلف الوقائع والظواهر التي عاشها المغرب آنذاك، ومع ذلك فإن هذه الإخباريات ملأت فجوات عدة في مستويات تاريخية مختلفة، إذ من خلال قراءة متأنية لنصوصها تنكشف للمؤرخ صور دقيقة عن الماضي البعيد في جوانبه المتعددة، فهي مؤلفات تعالج قضايا وإشكالات جديدة على مستوى الاشتغال التاريخي شريطة إخضاع متونها إلى نقد تاريخي نزيه ومحكم لإثبات صحة موضوعها ومدى واقعية الإخباري في تناوله للأخبار، خاصةً وأنه غالبًا ما يغيب حقائق كثيرة إما بدافع سياسي إذا كانت أخبارًا سياسية أو عسكرية، أو بدافع ديني أو عاطفي إذا كان الخبر عن الرموز والشخصيات الفاعلة في الحكم والسياسة، وبالتالي فالوقوف على ما تقوله نصوصها يطرح عدة إشكالات من قبيل قيمتها التاريخية، وهل يحكمها الحس التاريخي أم السياسي؟ وهل يكتفي المؤرخ الإخباري بتسجيل الخبر التاريخي فقط أم يعلله ويفسره؟

كانت دراسة هذا النمط التأليفي محجوزة عند ليفي بروفنصال فهو أول من قارب موضوع هذه الكتابات بمنهجية تجلو الغموض عن أبعادها وغاياتها، وذلك في مؤلفه "مؤرخو الشرفاء" الذي أكد فيه على أن أغلب هذه المؤلفات عبارة عن تواريخ الأسر الحاكمة، وأن وظيفة الإخباري محصورة في إحاطة سلطتها ورموزها بالعظمة وإضفاء الخيالات البعيدة عليها، وانطلاقًا من هذه المقاربة الجديرة بالاهتمام سنسعى عبر هذه الدراسة إلى إبراز النواقص التي تعتري هذه الإخباريات، وإظهار حدود وقيود الإخباري في ظل ارتباطه بالسلطة، وأهمية هذه الكتب في المعالجة التاريخية في مستوياتها المتعددة، ودورها في تقدم الكتابة التاريخية.

أولاً: النمط التأليفي في الكتابة الإخبارية وخطواتها المنهجية

كتب محمد جادور في مقال له عن "الإخباري المخزني بين التاريخ والسياسة" ما مفاده أن حرفة الكتابة الرسمية تتسم بوحدة النمط التأليفي، إذ تعبر "بجلاء عن التمثلات الذهنية والفكرية للكاتب المخزني، لما اتخذت ولي نعمتها مركزاً لإنتاجها التاريخي، وقرأت وأولت الأحداث من خلاله ولصالحه، بل وبحثت عن مختلف المرجعيات التاريخية لتبريرها".[1] لذا فإن نصوصها تحمل بعدًا بطوليا، حيث تعطي الفرد أهمية قصوى وتمنحه صفة الجبرية المطلقة، وتعتبره ذا أثر حاسم في الفعل التاريخي، ولأن مصدرها ينبع من غايات الحكام وأهدافهم فإن الأحداث التي تنسجها ليست بأخبار متناسقة وثابتة، لذلك تبقى مجرد تواريخ تعج بالعديد من الإشكالات والمعاني.[2] ولوحظ ذلك في التأليف الإخباري خلال العصر الحديث الذي أحاط الدولة بالعظمة وأضفى عليها خيالات بعيدة عن الواقع، وإثارته للكثير من التفاصيل والجزئيات الدقيقة حول الرموز، وكانت غايته "إثبات سياسة عامة للمخزن المغربي".[3] وقد تنبه ليفي بروفنصال إلى المواضيع المشتركة للحوليات المغربية بقوله: "إن موضوع أكثر المؤلفات التاريخية لا يتجاوز إلا نادرًا ذكر أخبار أسرة من الأسر الحاكمة، وأحيانا ذكر أخبار أمير واحد من أمراء تلك الأسرة، فهي في حقيقة الأمر تواريخ أسر كان بيدها في عهد من العهود، زمام الحكم، ولنذكر على سبيل المثال أن نزهة الحادي كتب لتدوين أحداث الدولة السعدية وإن البستان والجيش ألفا لتسجيل أحوال الدولة العلوية، وأن المنتقى المقصور يتكلم عن أحمد المنصور بيد أن الظل الوريف يتكلم عن المولى إسماعيل"،[4] فكانت بذلك كتبا للمديح والتقريظ للأسر الحاكمة.

برز المؤرخ الإخباري في تأليفه عن الأسر الحاكمة موهبته كناثر وشاعر، يمجدها بمقاطع شعرية بليغة، مما جعل مؤلفه يدخل في عداد كتب الأدب.[5] ونجد أغلبهم يوظف النكت الغريبة والطرائف العجيبة، لزيادة المؤلف رونقا وتشويقا، "يصغي إليها المنتهي والعاكف في ربع الآداب والبادي".[6] ويستعملون عبارة "حدثنا"،[7] و"ذكروا"،[8] و"مما سمعناه"،[9] و"ما يذكرون"،[10] وغيرها من المفردات المقحمة في مؤلفاتهم تدل دلالة صريحة على أن أحداثها مبنية على المرويات المتوارثة شفويًا جيلاً عن جيل، وبالتالي فهو تاريخ بالخبر أي الوصف الشفوي للواقعة.[11] ويتبع أغلبها السياق التاريخي للأحداث مستشهدة برواية المعاصرين لها من الفقهاء والعلماء وغيرهم. ويميل بعض الإخباريين أحيانا إلى تصوير الوقائع بدون زيادة وتسجيل الحدث بدون استغراب، وبالتالي عوض أن يستفسر حول كل جوانب الحدث يكتفي بالاستخبار، يطرح السؤال (ما الخبر) يسجل ولا يتعدى التسجيل، لا لأنه غبي لا يتطلع إلى مزيد من التوضيح، ولكن لأنه لا يشعر بأي حاجة إلى مزيد".[12] واكتفاء الإخباري بالمشاهدة أو تدوين التواريخ دون

تعليل يفسر- إما بتقربه من البلاط أو سعيه وراء المنصب والمال. ومع ذلك يعمد أغلب المؤرخين الإخباريين بعد سرد الخبر إلى أنواع من العلل لتفسيره إما بدافع فكري أو مذهبي أو تربوي.[١٣] وفي ذلك يقول بروفنصال أن المؤرخين "المغاربة القلائل الذين أشاروا بدافع من الدوافع إلى بعض العلاقات التي أبرمت بين المغرب والدول الأجنبية كانوا لا يتورعون إلا نادرا عن الانسياق لأهوائهم وعن تشويه الحقائق لإرضاء ما يشعرون به من تفوق واستعلاء بالنسبة لأصلهم وثقافتهم ودينهم."[١٤]

من معالم تفسير الخبر ما رواه الإفراني عن حدث ظهور آفة شرب الدخان أو "التبغة" التي أرجع سبب دخولها عام ١٥٩٢م على يد جماعة من السودان أتوا بفيلة إلى أحمد المنصور، يقول: «وبسبب دخول هذه الفيلة للمغرب ظهرت العشبة الخبيثة المسماة تبغة (...) يشربونها ويزعمون فيها منافع فشاعت عنهم في درعة ومراكش وغيرها من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتاوي العلماء».[١٥] ولم يمنع القادري الإيمان بالله في وقوع حدث ما "من البحث عن السبب المباشر المؤدي للحدث"،[١٦] فكان يقدم وصفًا دقيقًا للواقعة ثم يعطي سبب وقوعها، مثل حدث أزمة الغذاء في عهد المولى إسماعيل، قال عنها: «اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ووقع مرض في الناس ومات كثير بمرض وغيره من عدم الأقوات»[١٧]. كما فسر أوضاع مدينة فاس بحدث ظلم وجور السلطان سيدي محمد بن إسماعيل، يقول: «أمر (...) بنهب جميع من يظهر عنده الزرع بمكناس وبزرهون وفاس، فكانوا يدخلون لدار هذا اليوم ومن الغد يدخلون لدار الآخر وبعده لدار غيره (...)، وظهرت السياب بفاس في الليل، فكانوا يقلعون أبواب الدروب ويدخلون على الناس في ديارهم بالأربعين رجلا وأكثر، بفناراتهم وعدتهم وآلات حروبهم، ويأخذون جميع ما يجدونه فيها من زرع وأثاث (...)، فأخيفت السبل وقطعت الطرق جهرا».[١٨]

وهكذا فإن المؤرخ الإخباري لا يكتفي بسرد الأخبار فقط وإنما يعلل بعضها "إما تعليلاً طبيعيًا أو ثقافيا أي باعتبار النظم والعادات والعقائد، أما الأحداث التي تسجل بدون تعليل؟ نلاحظ أنها قريبة من المؤلف قربا مكانيا أو زمانيا أو ثقافيا".[١٩] وكان تعليل الخبر يتخذ دائمًا شكل القياس، حيث نجد الإخباري، الناظر في الأحداث والواصف لها، يقيس باستمرار الحاضر على الغائب، لإعادة البداهة إلى الأحداث.[٢٠] وتوظيف القياس في عملية الاستخبار كان لغاية قياس صواب الشيء من عكسه لتخوفه من رواية خبر يشك فيه، لذلك يقيسه بما ورد عند مؤلف آخر، ولا يرغب في تحمل المسؤولية عن روايته. ونجد ذلك في خلاصات ومقتبسات إخبارية الإفراني عن المؤرخ الفشتالي، ومع ذلك لم تخل هذه الإخباريات من انتحال وسرقة النصوص من بعضها البعض، ولا تراعي في ذلك أمانة رواية الخبر. فينقل أكنسوس مثلاً في كتابه "الجيش العرمرم" من مؤلف الزياني "البستان" برمته من غير أن يذكره، ونقل عن نزهة الحادي الفصول الخاصة بالدولة العلوية، خلافا للإفراني الذي "ذيل كتابه بقسم كبير من كتاب الفشتالي مؤرخ أحمد المنصور وبين بكامل الدقة مبتدأ ومنتهي كل فصل من الفصول المنقولة بعد عزوها إلى صاحبها."[٢١]

بناءً على ما سبق ذكره، يمكن إبداء عدة ملاحظات حول خطوات التأليف الإخباري ومنهج المؤرخ في رواية الخبر التاريخي، نلخصها على الشكل الآتي:

- وحدة نمط الكتابة الإخبارية، بحيث تسجل الأخبار والوقائع حسب السنين أو تضبط تواريخ وقوعها باليوم والسنة والشهر، وتعتمد الرواية الشفوية في نقل الخبر؛
- مؤلفات مليئة بالاستطرادات الأدبية وذكر محاسن مركز إنتاجها؛
- تتميز بالطلاوة واستعمال المحسنات البديعية، سيما حينما تريد أن تلف بعض الحقائق المرة، وتوظف الاستعارات المعقدة،[٢٢] وتضمنها لمفردات شعبية وتعابير تقنية، تركية وفرنجية؛[٢٣]
- اكتفاء بعضها بالمشاهدة دون تعليل الأخبار المروية؛
- ارتباط أغلب مادتها بالسياسة وخدمة السلطة، مما يجعل المؤرخ مقيدا مجردا من سلطة تقييم الوقائع وإبداء الرأي.

وعمومًا، تتطابق وتتجانس هذه المؤلفات في محتوى نصوصها القديمة، وهو تطابق تتمظهر جوانبه في اجترار نفس الأخبار والروايات حول الحوادث والوقائع، وتأتي ببراهين وشهادات تساند ما سجلته من الأحداث التي يستند بعضها إلى عدم المنطقية بتغييب الحقيقة وكتم الأسرار، إما لإثبات قضية معينة أو خلق جو يتناسب مع القصة الغرائبية وحبكة الرواية.

ثانيًا: المؤرخ الإخباري: بين الخبر التاريخي والفعل السياسي

تزخر إخباريات العصر الحديث بمادة تاريخية غنية رغم ارتباطها بالسياسة وخدمة أهداف السلطان وتبرير أفعاله وشرائعه، ويعد الإخباري عبد العزيز الفشتالي أحد أقطاب هذا

النمط من التأليف الإخباري خلال عهد الشرفاء السعديين، كلفه السلطان أحمد المنصوربتدوين حوليات كل ما يقع في المغرب خلال فترة عهده، سماها "مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء"، وهي إخبارية تصنف ضمن كتب "التراجم والسير والأسر الحاكمة، فهو يهتم بتاريخ الأسرة المالكة وسيرة أحد ملوكها كما يدون أخبار دولته وأهم مميزاتها دون أن يغفل عن التعرض لأهم رجالاتها في ميادين السياسة والحرب والعلوم".[٢٤] وكان طبيعيا أن يضفي هذا المؤرخ على رمز السلطان هالة أسطورية لأنه مؤرخ رسمي لدولته، فيعتبره بذلك فردا حاسما في الفعل التاريخي، إذ يقول: "إن رجاله [السلطان المنصور] الأبطال كانوا إذا أحرقهم شرر البندق ولفحت وجوههم نار البارود تقهقروا يتدرق بعضهم ببعض حتى يتدرق جميعهم بأمير المؤمنين ويمتدوا من ورائه حبلا فيبدو تحت الألوية غير متوار بدو القمر من تحت الغمام".[٢٥] وهذا الخطاب العجائبي للفشتالي عن أحمد المنصور يعد بمثابة فعل سياسي يمارسه المؤرخ الإخباري تنعكس خطورته في أن رموز العظماء ترفع إلى مرتبة القدسية، وتجعل روايته للخبر في عداد الإخباريين الذين يبررون "كل شيء حتى غير المعقول بأنه حدث بالفعل".[٢٦] وفي مقابل ذلك، يغيب الفشتالي أخبار الأحوال العامة، فهو لا يقف كثيرا على الأنماط الحياتية للبيئة المغربية بل إنه يتكتم على بعض القضايا التي أثيرت في عهد المنصور مثل قضايا الفساد والرشوة في الإدارة، هذا بالإضافة إلى رذالة أخلاق وفسق رجالات الجيش وفجورهم، ونهبهم لأموال الرعية وممارستهم للعنف والاستبداد.[٢٧] يُضاف إلى ذلك تستره على قضية تأثير مسلمة النصارى واليهود في إدارة المنصور وخزينة ماليته مما أثار حفيظة مشايخ الزوايا.[٢٨]

ويُعَدّ أحمد بن القاضي من أبرز مؤرخي الشرفاء، خصص مؤلفه "المنتقى المقصور" للحديث عن محاسن السلطان المنصور كاعتراف له بالجميل عقب افتدائه من الأسر مما جعله يضع خيالات عن عظمة المنصور التي لم يسبق لها أحد من الملوك في فضائله، ومناقبه الكثيرة، يرى أنه سلطان عادل وورع، وعالم بالعلوم الشرعية، وبموسم المولد النبوي وما إلى ذلك. وحسب ابن القاضي فهي صفات اجتمعت فيه وتفرقت في غيره من الملوك. نقرأ في إخباريته ما مفاده : "اجتمع لمولانا من الحسب، والملك، والعلم، والحلم، وحسن المعاشرة، وكرم الأخلاق، وكثرة البذل، والتودد لرعيته وجبر قلوبهم، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، ما لم يجتمع لملك قبله".[٢٩] بل وصلت به هذه الحماسة إلى إعطائه معركة وادي المخازن دلالة رمزية مبالغ فيها جعلته يقارنها بمعركة بدر، يقول: "وكانت غزوة عظيمة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى أنها أشبه شيء بغزوة بدر".[٣٠] ومن هفواته تغييب الكثير من الأحداث والرموز والشخصيات الأخرى التي كانت فعلا حاسما في هذه المعركة، يقول: "فلم ير في سالف الأزمان مثل ما اتفق لهذا الملك في هذه الغزوة العظيمة"،[٣١] لتظل بذلك إخبارية بن القاضي متشبثة بنفس النسق الذي صارت على منواله معظم الإخباريات.

أما إخبارية "تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية" لمؤرخ مجهول، فقد ركزت على فترة محمد الشيخ مقارنة مع أحمد المنصور، ويمكن تفسير ذلك إما أن المؤلف على علم باهتمام الإخباريين بعهد المنصور أو لموقفه السلبي ضده، فهو يرى عدم فائدة رواية الخبر عن المنصور وقلة جدواه. وقد علق العروي على ذلك بالقول: "ليس للخبر حجم معلوم، قد يجزأ إلى ما لا نهاية، وقد يلخص حسب رغبة المخبر".[٣٢] ويبدو أن هذا المؤرخ الإخباري اختار الأحداث التي يريد التعليق عليها، وترك الباقي أو عرج عليه في إشارات سريعة دون تعليل، لكن ما يميز هذا الإخباري عن غيره تنزهه عن العاطفة في سرد الوقائع. ومما يعاب عليه تحامله الشديد على الدولة السعدية، فتغاضى عن المحاسن وذكر المساوئ. ومما نقرأه في إخباريته عن المولى زيدان أنه كان «معتكفًا على خموره ولذاته وفجور أموره وشهواته».[٣٣] وقال عن محمد الشيخ بن المنصور: «كان قبيح الذات والأفعال (...) مسرعًا إلى الفساد في القينات والصبيان والأولاد مصرا على الخمر والحشيش (...) قليل الهيبة يضر بالمساكن ويأكل أموال الرعية».[٣٤] ولم يسلم من تقريعه عبد الملك ولد المولى زيدان إذ اعتبره شخصا «مصرا على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج وهو سكران فمات مخمورا»[٣٥]. وتحامل المؤرخ المجهول على دولة الشرفاء جعل الإفراني في إخباريته "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" كثير التحفظ فيما ينقل منه ويوجز كل ما فيه نوع من التحامل على رجالات الدولة السعدية".[٣٦]

خصص الإفراني حيزا كبيرا من إخباريته "نزهة الحادي" للحديث عن سيرة أحمد المنصور إلى حين وفاته. ولعل من دواعي ذلك ميله العاطفي لأشراف موطنه بسوس، ورغم هذه العاطفة الجياشة تجاه الأشراف لم يكن منصفًا في الحديث عن باقي ملوك الدولة السعدية، إذ نجده يقفز بسرعة ودون تنبيه من التعريف بنسبهم وفترة جلوسهم على العرش إلى زمن المنصور، بل إنه لم يعط لحدث معركة وادي المخازن إلا برهة

فوقف عليها قليلا، وكأن شيئا يحركه إلى فترة هذا السلطان الذي بدأ في تحرير منجزاته. وكان يأخذ بعض معلوماته من إخبارية مؤرخ مجهول، لكنها كانت مختصرة، محاولا في ذلك تجاهل مواقفه المعادية للدولة السعدية، بل نجده يغض الطرف عما ذكره هذا المؤرخ، فلم يشأ أن يورد في إخباريته عبارات "لا يرتاح عادة لسماعها أرباب السلطة ولا تتسع لها صدورهم ولكنه كان دائما يتخلص من تبعتها بإسنادها إلى أصحابها."[٣٧] وفي هذا الأمر يقول الإفراني: "وهذه أمور شنيعة إن صح أنه فعلها، ولست أدخل في عهدتها، إنما رأيتها في أوراق مجهول المؤلف، اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية...، ووصف دولتهم بالخبيثة، فلذاك تجنبت منها كثيرا من الأخبار التي لا تظن بأولئك السادات الأشراف رحمهم الله".[٣٨] ورغم أهمية إخباريته إلا أنه للأسف لم يتوقف عند عدة حوادث وقعت خلال عهد المنصور من تجاوزات قواد جيشه وحاشيته، والفساد الذي كان شائعا في الإدارة والقضاء،[٣٩] فهو بنفسه يعترف بانتشاره وغلبته، لكنه لا يصرح بذلك كثيرا، وقد استدرك تجاوزاته وهفواته وعدم موازناته في كتابه الصفوة.[٤٠]

وعمومًا، كانت معظم إخباريات العصر الحديث تساير الخط الإيديولوجي للسلطة الحاكمة، فكانت تمرر الكثير من المغالطات، وتغيب الحقائق وتكتم الأسرار، وتبرر وقائع غير معقولة بحدوثها، وتطمس حياة الطبقات المهمشة والفئات الفاعلة في المجتمع. ورغم ذلك فإن فائدتها كانت كبيرة في نسج خيوط تأليف تاريخي متنوع بتلاقي رؤاها واختلافها رغم نسبية الحقائق في بعضها، لأن التاريخ بالنسبة لها مجرد مرآة تعكس أوامر الحكام وغاياتهم، والإخباري مجرد موظف لا يحق له نقد إملاءات السلطة، ومع ذلك فإنها تملأ فجوات عدة في تاريخ المغرب، لذلك تبقى سندا مرجعيا مهما في بلورة مقاربة تأملية حول مستويات تاريخية عدة، ومادة أساسية في طرح الفرضيات اللازمة واستخلاص النتائج الأساسية.

ثالثًا: أهمية الإخباريات في الكتابة التاريخية الحديثة

تمثل إخباريات العصر الحديث مواد مصدرية مهمة في الكتابة التاريخية، إذ تكشف عن جوانب تاريخية عديدة، ومع ذلك لم تستغل بالشكل الكافي في البحث التاريخي. ومن أهم المؤلفات الإخبارية التي تتيح إمكانية وضع مقاربات تاريخية متعددة الجوانب إخبارية الفشتالي الذي رغم تخلفه عن الحياد وإحكام العقل في سرد الوقائع بتمجيد خيالي للسلطة الحاكمة وتبني رؤيتها بالتدقيق في مآثر السلطان والغلو في تعظيمه، وتبرير سلوكيات قواته الغازية، لا يعني أن جميع الأخبار التي أوردها غير صحيحة بل بالعكس من ذلك، إذ ذكرت أمورا غاية في الأهمية حول سياسة الدولة المجالية،[٤١] ونطقت بالكثير من المعلومات حول تفاعل مؤسسات المغرب مع المجال المتوسطي على مستوى التنظيمات الإدارية والعسكرية،[٤٢] ومدى تأثره بالنظام الاقتصادي السائد بالعالم المتوسطي، وفي ذلك يقول: «ومن أعظم آثاره [أحمد المنصور] المعاصر السكرية التي ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشيشاوة من عمل مراكش»[٤٣]. كما أوردت إخباريته معلومات اجتماعية في غاية الأهمية.[٤٤]

والشيء نفسه يقال عن بن القاضي في إخباريته "المنتقى المقصور"، الغنية بالمعلومات النادرة حول البنية السياسية، والمؤسسات الإدارية، والعسكرية للمغرب، كوصفه لتعداد الجيش،[٤٥] ووصف معداته،[٤٦] وإشاراته حول الحصون والأبراج.[٤٧] كما لا تخلو إخباريته من بعض الإشارات حول العمران ومآثر الدولة في البناء.[٤٨] وكذلك إخبارية الإفراني الغنية بالمعلومات حول العمران،[٤٩] والتنظيمات العسكرية،[٥٠] والإدارية،[٥١] والاقتصادية،[٥٢] وهي معطيات تاريخية مهمة يمكن استثمارها، بشكل أفضل في توضيح مدى قدرة المغرب على التفاعل مع دول المجال المتوسطي، والاستفادة من التقدم العمراني، والتنظيم الاقتصادي والعسكري والتقني الذي حققته المدن والدول المتوسطية آنذاك.

ورغم مواقف مؤرخ مجهول المعادية لتوجه الشرفاء السعديين فإن مؤلفه يعد ثمينا خاصة وأن صاحبه جاء برؤية جديدة مغايرة لما تحدث عنه وذكره مؤرخو السلطة، إذ كان مؤلفه شموليًا تضمن أخبار المغرب الداخلية عن ملوكه وعامته، وأخبار الأزمات ثم سجل وقائع خارجية مثل أحداث استرجاع العثمانيين لحلق الوادي عام ١٥٧٤م، وفتح السودان. وتناول مؤلفه دور السلاطين السعديين في تحديث الإدارة ومؤسسة الجيش ومكوناته في عهد محمد الشيخ، يقول: "لما تملك محمد الشيخ فاس خدموا عنده انكشارية وهم أهل الركاب فاستحسن خدمتهم وملئوا عينه وقلبه لأنهم كانوا جافين، فكانوا يمشون بإزائه وأمامه وينزلون بقربه وكانوا نحو أربعمائة، وكان السلطان يعنى بحقوقهم ويخاف من عقوقهم".[٥٣] ونظرًا لغزارة الأخبار الواردة في إخباريته وتنوعها تبقى ذات قيمة تاريخية مهمة نابعة من كون صاحبها "ليس ممن يزخرفون الأقوال ويكيلون المدح والثناء بالمكيال الأوفى لكل من يجول لهم الصلات ويغدق عليهم العطايا".[٥٤]

ومـن الإخبـاريات الـتي وقفـت عـلى الأزمـات الاقتصـادية والمعاشية، ومختلـف الظـواهر الـتي تعـرض لهـا المغـرب، مثـل الجفـاف وانحبـاس المطـر والمجاعـات والأوبئـة، إخباريـة القادري"نشر المثاني لأهـل القرن الحـادي عشر والثاني"،التي تعد نموذجا مختلفا عـن النمط التأليفي الموحد للإخباريات الأخرى، معتمدا في رواية الأخبار على المشاهدة،[٥٥]وتقييدات أهل العلم والثقة، يقول: "وكـل ما قيدته هنا في هذه الترجمة [خبر وفاة المـولى إسماعيل] وغيرهـا مـن الحـوادث والتـواريخ كلـه وجدتـه مقيـدا بخـط مـن يظـن بـه الثقـة"،[٥٦] بالإضـافة إلى "الروايـة الشفوية التي يضفي عليها صبغة النسبية بل التحفظ، ملمحًا إلى ذلك بعبارة: "فيما قيل"، أو "وذكروا".[٥٧]

ركزت إخبارية القادري على الأزمات الخطيرة التي بدأت مع النصف الأول من القرن السابع عشر مثل أزمة غلاء القمح عام ١٦٢٥م،[٥٨] وأزمـة ١٦٦١م حيث الصـراع كـان قائمـا بـين الـدلائيين والإمارة العلوية الناشئة مما نتج عنه حصار الدلائيين لمدينة فاس "فأفسدوا بذلك الفواكه والزروع ونهبوا وسبوا وأهلكوا، وهكذا غلت الأسعار بسبب ذلك، وأكل الناس الموتى والجيف بفـاس وذبـح الأطفـال للاسـتراحة مـنهم.[٥٩] وذكـر الآفـات والنكبات العامة التي تعرض لها المغرب مثل هجوم الجراد في أوائل رمضان ١٧٥٣م والذي قضى على المزروعات ولم يسلم منه إلا الـزرع الـذي صـادفه يابسـا.[٦٠] وعمومـا كانـت فائـدة إخباريـة القادري كبيرة في التأليف الاقتصادي والاجتماعي عن المغرب، وتحيل إخباريته على تطور مهم للكتابة التاريخية خلافًا لباقي الإخباريين من عصره أو ممَنْ سبقوه الذين غيبوا وأقصوا ثقافة الهوامش بجعل مؤلفاتهم في خدمة السلطة الحاكمة.

نلمـس أهميـة هـذه المـواد المصـدرية للمـؤرخ في تحريهـا لمواضـيع مختلفـة، وتناولهـا الخـبر التـاريخي بالتفصـيل، ورغـم حمولتهـا السياسـية فإنهـا لهـا أهميـة كبـيرة في تطـور الكتابـة التاريخيـة، ولا تتطلـب سـوى اسـتنطاقها وإخضـاعها للدراسـة والتحليل حتى يتمحص الصحيح من سقيم المعلومات الواردة بها.

خَاتِمَةٌ

من جملة ما يمكن استشفافه، أن إخباريات العصر الحديث، مـن طبقـة الفشـتالي وبـن القـاضي والإفـراني ومـؤرخ مجهـول والقـادري وغـيرهم، تعطـي وجهـة نظـر مختلفـة عـن التـأليف الأوروبي، فهي إرث حقيقي عن عدة أحداث عاشها المغرب، على الـرغم مـن أن بعضها لـم يصـور وقائعها بشـكل دقيـق وشـامل، وأحيانًـا تقـدم الحـدث بشـكل ملغـوم. ورغـم مـا يشـوب هـذه المؤلفات من قصور لا يجب الإعراض عنها بل ينبغي استغلال موادهـا قـدر الإمكـان باسـتنباط مسـتويات تاريخيـة لـم يـتم التفكير فيها بعد، وذلك وفق منهج استقرائي ومقارن لأحداثها مع تفـادي السـقوط في دوامـة التأويـل البعيـد الـذي يفضي إلى اسـتنتاجات ناقصـة خاصـة وأن مـن هـذه المؤلفـات مـا يشـفي الغليـل في الكتابـة التاريخيـة، فهـي تُعَـدّ سـندًا مرجعيًـا مهمًـا للبـاحثين في التـاريخ الاقتصـاد والاجتمـاعي الغـني بالإشـكالات الـتي مـا تـزال عالقـة في ظـل سـطوة التـاريخ السـياسي، والـذي بسبب ميل المؤرخ للسلطة وارتباط مادته بها غابت الحقائق عن الأوضـاع الاجتماعيـة لسـاكنة الأرياف والمـدن وظـروف حيـاتهم اليومية، ودور التقلبات المناخية، والأمراض والأوبئة على البنية السكانية، ولـذلك لـم ترتسـم بعـد اللوحـة الكاملـة عـن المجتمـع المغربي كما رسمها المؤرخـون الأوربيـون عـن مجتمعاتهم، كما أن تقـديم معلومـات دقيقـة بشـأن المؤسسـات الإداريـة والعسكرية لا يتأتى إلا بالعودة إلى هذه المصادر الوطنية لملء الفجوات عن هذا التاريخ الناقص الذي أشرف عليه الأجانب.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد جادور، **الإخباري المخزني بين التاريخ والسياسة أبو القاسم الزياني نموذجًا**، أعمال الحلقة الدراسية: التاريخ والسياسة مقاربات وقضايا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، (٢٠١٣): ١١٧.

(2) Eric Vigne, «Le temps de l'histoire en question », vingtième siècle, revue d'histoire, N 6, avril-juin (1985): 132.

(٣) نفسه، ١١٧.

(٤) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، (الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧)، ٦٨.

(٥) نفسه، ٨١.

(٦) أحمد بن القاضي، **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**، الجزء الأول (الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٩٨٦)، ٢٤٠.

(٧) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية** (دار تنمل للطباعة والنشر١٩٩٤)، ١٢.

(٨) محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، الجزء ٢ (الرباط: دار المغرب، ١٩٧٧)، ٦٧.

(٩) نفسه، ٧٨.

(١٠) نفسه، ٨١.

(١١) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، الطبعة الرابعة (بيروت-لبنان: المركز الثقافي العربي)، ٩٩.

(١٢) نفسه، ٢٩٣.

(١٣) نفسه، ٢٩٤.

(١٤) بروفنصال، مؤرخو، ٦٧.

(١٥) محمد الصغير الوافرني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، (أنجى ١٨٨٨)، ١٦٢.

(١٦) العروي، ٢٩٣.

(١٧) القادري، **نشر المثاني**، ج ٣، ٢٥٣.

(١٨) نفسه، ٣٩٩.

(١٩) العروي، **مفهوم**، ٢٩٢- ٢٩٣.

(٢٠) نفسه، ٢٩٤- ٢٩٥.

(٢١) بروفنصال، **مؤرخو**، ٦٤.

(٢٢) نفسه، ٧٤.

(٢٣) نفسه، ٧٧.

(٢٤) عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا** (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، ١٩٧٢)، ٢٢.

(٢٥) المصدر السابق، ١٨.

(٢٦) العروي، **مفهوم**، ٣١٧.

(٢٧) عبد الرحمان السعدي، **تاريخ السودان** (باريس، ١٩٨١)، ١٧٤.

Henry De Castries, Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, première série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Angleterre, Tome II, (Paris : paul Guthner, Londres : Luzac et C (ie), 1925) : 396.

(٢٨) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس-الجزائر- المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م**، الجزء الثاني، الطبعة الثانية (تونس: الدار التونسية للنشر ١٩٨٥)، ٢٧٢.

(٢٩) بن القاضي، **المنتقى المقصور**، ٢٤٤.

(٣٠) نفسه، نفس الصفحة.

(٣١) نفسه، ٢٤٥- ٢٤٦.

(٣٢) العروي، **مفهوم**، ٢٩٧.

(٣٣) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة**، ٩٣.

(٣٤) نفسه، ٦٩.

(٣٥) نفسه، ٩٤.

(٣٦) بروفنصال، **مؤرخو**، ٩٩.

(٣٧) نفسه، ٩٦.

(٣٨) الوفراني، **نزهة الحادي**، ٤٩.

(٣٩) نفسه، ١٥٨- ١٥٩.

(٤٠) محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، الطبعة الأولى (مركز الفرات الثقافي المغربي، ٢٠٠٤)، ٦٧.

(٤١) الفشتالي، **مناهل الصفا**، ٢٣.

(٤٢) نفسه، ١٦١- ١٦٢- ١٩٧- ٢٠٧.

(٤٣) نفسه، ٢٠٩.

(٤٤) نفسه، ٢١١.

(٤٥) بن القاضي، **المنتقى المقصور**، ٨٣١.

(٤٦) نفسه، ٦٧٦.

(٤٧) نفسه، ٨٣٦- ٨٣٧.

(٤٨) نفسه، ٨٣٤- ٨٣٥.

(٤٩) الوافرني، **نزهة الحادي**، ١٠٢.

(٥٠) نفسه، ١١٥.

(٥١) نفسه، ١٦٤.

(٥٢) نفسه، ١٠٣.

(٥٣) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة**، ٣٠.

(٥٤) بروفنصال، **مؤرخو**، ١٠٠.

(٥٥) بدر المقري، "**أزمات التغذية في المغرب من خلال حوليات محمد بن الطيب القادري (ت. ١١٨٧هـ)**"، مجلة أمل، العدد السابع عشر، السنة السادسة، (١٩٩٩): ١٧.

(٥٦) القادري، **نشر المثاني**، ج ٣، ٢٩٢.

(٥٧) المقري، ١٧.

(٥٨) القادري، ج ١، ٢٦٥.

(٥٩) نفسه، ج ٢، ١٢٩.

(٦٠) نفسه، ج٤، ٩٩.